

غريكا بيكاسو وحوزي تشيخوف ضد نشرات الأخبار

أدوية الفن أنجع لقاح لفايروس الفتور واللامبالاة العربية

يقول المثل الإنجليزي إن "الاعتقاد يؤلّد الاستهانة"، ما يقصد به أن كثرة التعرّض لشيء ما أو شخص ما، غالباً ما يكشف عيوبه التي ظلت خافية لمدة من الزمن؛ عندها تسقط عنه قشرة الوقار والاحترام، فيُستهان به. غير أن هذه المقولة قد تؤخّذ على محمل أبعد وأعمق من كل هذا، حين نتأمّل ما يتعرّض له وجدان البشر في عصر الإعلام المرئي والبث المباشر والمتواصل على مدار الساعة.

أحمد القرملاوي
كاتب وأديب مصري



وضعها المفكرون يقوم الكثير منها على أساس من التعاطف والانحياز الطبقي والعنصري أحياناً.

لذا يكون من الخطورة بمكان أن تُستنزف هذه الطاقة البشرية الخاصة والجوهرية في تأسيس المجتمعات، بأن جعلها عرضة للناكس والتلاشي أمام هجمات الاعتقاد التي تُصنّفها الشاشات والمنصات ليل نهار.

الفن هو أنجع لقاح يقي البشرية من ذلك الفايروس اللعين؛ فايروس اللامبالاة، إذ نادراً ما يتعامل الفن مع البشر كجماعات ووزرافات، بل غالباً ما يركّز على شخص بمفرده، أو على عدد محدود من الأفراد في ظروف محددة، حيث يعكس عبر حكاياتهم وخصوصية تجاربهم فكرة أكثر عمومية.

لنتأمّل مثلاً لوحة بابلو بيكاسو الشهيرة "غريكا" التي استوحاها من قصف الطائرات الحربية التابعة لقوات فرانكو وحلفائه الألمان والإيطاليين الفاشيين لقرية غريكا خلال الحرب الأهلية الإسبانية.

لو وقعت مثل هذه الحرب اليوم لتابعنا مشاهدتها عبر نشرات إخبارية موقوتة ومنظمة مسبوقة بتترات موسيقية محفوظة مكررة تهيئ المشاهد لتقبّل الفواجع التي ستعرّض عليه خلال الدقائق التالية، حيث تُسهّل بملخص لما سيُشاهد "في هذا الموجز" أو خلال "هذه النشرة الإخبارية"، كأنه يتلقّى مصلاً ضد أي تعاطف ممكن، ثم تتوالى المشاهد السريعة التي تلتقط الحدث من زوايا بعيدة وكادرات عمومية، وسرعان ما تُختتم النشرة بأخبار الفن والرياضة كنوع من الترويح تمهيداً للعودة السريعة إلى الحياة الطبيعية، فينتهي الأمر كان شيئاً لم يكن.

هكذا يتكرر الأمر كل ساعة حتى نتخلّص من أصغر شبيهة للتعاطف والتأثر، ونستحيل بشراً لطفاء سعداء غير مبالين.

نادراً ما يتعامل الفن مع البشر كجماعات، بل غالباً ما يركّز على شخص بمفرده أو على أفراد محدودين

أما لوحة بيكاسو فلم تلعب مثل هذا الدور "الوقائي" المخفف لأثر الفواجع والماسي الإنسانية لمتستخدم الحقائق في صناعة الكذب كما يفعل الإعلام المرئي، بل إنها صنعت العكس على وجه التحديد، فكما يقول بيكاسو "جميعنا يعرف أن الفن لا يقول الحقيقة؛ الفن كذبة تجعلنا نُدرك الحقيقة". ونعم الكذب ما قاله بيكاسو عبر لوحته الشهيرة "غريكا".

تلد الجدارية الرهيبة التي يتوقّف أمامها زوار متحف الملكة صوفيا للفن الحديث، فلا

تخوض السينما مواجهات عديدة لحمالات التطعيم ضد التعاطف وتشرّص أمصال اللامبالاة التي تُشرف عليها نشرات الأخبار كل يوم.

جميعنا شاهد لقطات من الحربين العالميتين الأولى والثانية عبر نشرات وبرامج إخبارية في مناسبات مناسبات، ولا شتى، ولا بد أن

تخوض السينما مواجهات عديدة لحمالات التطعيم ضد التعاطف وتشرّص أمصال اللامبالاة التي تُشرف عليها نشرات الأخبار كل يوم.

جميعنا شاهد لقطات من الحربين العالميتين الأولى والثانية عبر نشرات وبرامج إخبارية في مناسبات مناسبات، ولا شتى، ولا بد أن

تخوض السينما مواجهات عديدة لحمالات التطعيم ضد التعاطف وتشرّص أمصال اللامبالاة التي تُشرف عليها نشرات الأخبار كل يوم.

جميعنا شاهد لقطات من الحربين العالميتين الأولى والثانية عبر نشرات وبرامج إخبارية في مناسبات مناسبات، ولا شتى، ولا بد أن



لوحة بيكاسو متجددة ولا تخفف من أثر الفواجع والمآسي



النشرات الإخبارية مصّل ضد أي تعاطف



فيلم «دنكيرك» لا يسمح لنا برفاهة تأمل الجموع ككومة باهتة

لجهاز أشعة الكتابة الإبداعية. فما بالنا لو خاض بنا الأدب غمار الحروب وأقبية السجون، ما بالنا لو عبر بنا وحل مرض فاتك، أو لجة عشق مقموع، من المؤكّد أن بإمكانه أن يحملنا ليس فقط على التعاطف بل على ذرف الدموع.

السينما تخوض مواجهات عديدة لحمالات التطعيم ضد التعاطف ونشر أمصال اللامبالاة التي تُشرف عليها نشرات الأخبار

قد لا يكون باستطاعة الفن أن يُنقذ العالم من الحروب، من الأوبئة والزلازل والبراكين، لكن بإمكانه أن يُنقذ البشر من الفتور، من العدمية واللامبالاة، من فخ الاعتقاد ومعرفة الاستهانة.

يستمتع إليه ويتعاطف مع بؤسه. يشرع الحوزي في قصّ حكاية ولده على الشبان الذين يستوقفونه في شوارع المدينة الغارقة في البياض البارد، فينهرونه ويزجرونه حتى يُسرّع بتوصيلهم إلى متغاهم دون فرقة مملّة، بل ويسبّونه ويُطلقون عليه النكات القبيحة، ولا يدفعون له ما يكفي من المال لإطعام فرسه الهزيل.

غير أنه لا يهتم لذلك، بل يسعى للبحث عن بُضي إليه بوجهه، فيعود إلى الإسطنبول ويبحث عن حوزي زميل بيته أحرّانه، فيجدهم يغطون في النوم غير مبالين، ولا يجد في النهاية إلا الحصان لكي يستمتع إليه ويهزّ رأسه في تعاطف متوهم.

في الحياة الواقعية قد لا يُثير في نفوسنا هذا الحوزي العجوز ذو المظهر البائس والقيادة البطيئة إلا الضجر، غير أنه سيثير الشفقة والتعاطف لا محالة حين يوضع تحت مجهر الفن ويتعرّض

العديد منا قد لاحظ كيف تبدو بعض المشاهد ذات الكادرات المفتوحة والإيقاع الأسرع من المعتاد، كرونية على نحو ما، كأنها تختفي لفيلم من أفلام شارلي شابلن. أما الأفلام السينمائية التي تناولت الحربين فلا تسمح للقاصح اللامبالاة بالتسرّب لأوردة المشاهدين لحظة واحدة.

لنا مثال في فيلم «دنكيرك» للمخرج الكبير كريستوفر نولان الذي يتناول عملية إجلاء قوات الحلفاء من ساحل دنكيرك الفرنسي خلال الحرب العالمية الثانية. يُحمننا أحد المشاهد السينمائية داخل كابينة طائرة حربية، لنعايش طياراً فيما يواجه طائرة مُغيرة تُفلت بالكاد من صاروخها الموجه لذيل طائرته، ومن نيرانها التي تكاد تلتهم جناحه، بل نعاينه فيما يتلقى قذيفة مصوبة بدقة تهوي بطائرته في قاع البحر. لا يمكننا نحن المشاهدين إلا التعاطف مع هذا المقاتل في حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل، غير أننا نضع أنفسنا في داخل كابينة طائرته، نخشى على حياتنا، ونحمد الله على سلامتنا فيما نتمنى له المثل.

حتى المشاهد التي تصوّر الجموع لا تسمح لنا برفاهة تأملهم ككومة باهتة من الجنود النمطيين، بل كبشر متباينين، متصارعين ومتعاركين، تلمع في عين الواحد منهم نظرة مرعوبة من طائرة تُقبل على الشاطئ، بينما تُصمخ عيننا زميله عن إصرار لا يلبث على المقاومة، فيما يبدي ثالث نظرات لا مبالية تروح بالاستسلام.

أما في قعر السفينة المشرقة على الغرق، فالجنود المنتهون لنفس الجبهة يتصارعون في ما بينهم، من منهم سيُقوم بمعالجة القنب الذي سيُغرق الجميع؛ فالجميع خائف، أنا، بنارز من أجل الحياة ولا يُبدي جسارة كافية إزاء الموت، لذا ندفع رغماً عنا إلى التعاطف معهم مهما تصرفوا بشراسة وهمجية وأنانية مفقطة، فنحن مثلهم لا نريد الموت، نستمسك بالحياة إذ نجد أنفسنا مكبلين في ظروف ليست من اختيارنا، تماماً مثل شخصيات لوحة بيكاسو المفزوعة المبعثرة.

أدب يُجاهه اللامبالاة

باستطاعة الأدب، في صورته المثالية، أن يقوم بما هو أبعد من ذلك، فعلى عكس الفنون البصرية مثل الفن التشكيلي والسينما، يغوص الفن السردي والشعري بحرية أكبر داخل النفس البشرية، فيكشف عن خباياها التي قد تولد المزيد من التعاطف والتأثر في نفس القارئ والمتلقّي.

فها هو تشيخوف في قصته "من أشكو كاتبتي" يصور الحوزي العجوز مُقوس الظهر أبونا، الذي توقف حتى عن إزاحة ندف الثلج التي تتساقط فوق معطفه وتغوص به في المزيد من البرودة والوحدة، والذي يسعى لأن يُشرك أي شخص آخر في مأساته؛ لقد مات ولده في المستشفى ليلة أمس ولا يجد من

يستطيعون الإشاحة بأبصارهم بعيداً عن الفجحة المائلة أمامهم في كل تفصيطة رسمها بيكاسو بطريقته التعبيرية المذهلة على الجدارية الهائلة التي تحيل ملامح البشر والحياة لمركبات يمكن تفكيكها وإعادة تجميعها في وضعيات غريبة ومفزعة؛ هل ثمة ما يعكس بصق بشاعة الحرب مثل كذبة بيكاسو؟

في "غريكا" تصرخ المرأة التي تحمل رضيعها الميت في يسار اللوحة، فيما تتساقط عينها على هيئة دموع تهوي من وجهها، ويرقد الجندي مبعثر الأطراف في أسفل اللوحة - تحت سنابك الحصان - عاجزاً عن الوصول إلى المرأة الصارخة، مسكاً بمقبض سيف مكسور نذبت منه زهرة شانته.

أما المرأة في يمين اللوحة فتبدو كأنها تسقط وسط الحرائق التي سببها القصف، فيما تتساقط ملامحها وفتحتا أنفها على هيئة دموع مبعثرة. المرأة الوحيدة التي لها ملامح معتدلة لم تسقط بعد من مواضعها، هي تلك التي تدخل المشهد عبر كوة في الجدار، حاملة مشعلاً صغيراً لا يُبشع منه أي ضوء، بل يبدو منطقتاً تماماً في حضور المصباح الكهربائي الكبير المهيمن على المشهد، والذي يُبشع ضوءاً على هيئة عين كبيرة متوحشة.

ثمة حصان صارخ، وفور مفزوع غير مصدق، كما هنالك طائر معذب الملامح مبعثر الجناحين. على هذا النحو يُنبث بيكاسو اللحظة الزمنية المفجعة، في ملامح شخصياته كما في عموم الجدارية الهائلة، ليُجبر الناظر إليها على الوقوف أمام كل حالة على انفرادها، عوضاً عن العبور بعجالة على مشاهد عمومية تجعل البشر والإنقاذ والأشلاء في كومات بلا ملامح يمكن نسيانها أو التجاوز عنها بسرعة موجز إخباري.

سينما تواجه الأخبار

تخوض السينما مواجهات عديدة لحمالات التطعيم ضد التعاطف وتشرّص أمصال اللامبالاة التي تُشرف عليها نشرات الأخبار كل يوم.

جميعنا شاهد لقطات من الحربين العالميتين الأولى والثانية عبر نشرات وبرامج إخبارية في مناسبات مناسبات، ولا شتى، ولا بد أن

تخوض السينما مواجهات عديدة لحمالات التطعيم ضد التعاطف وتشرّص أمصال اللامبالاة التي تُشرف عليها نشرات الأخبار كل يوم.

جميعنا شاهد لقطات من الحربين العالميتين الأولى والثانية عبر نشرات وبرامج إخبارية في مناسبات مناسبات، ولا شتى، ولا بد أن

تخوض السينما مواجهات عديدة لحمالات التطعيم ضد التعاطف وتشرّص أمصال اللامبالاة التي تُشرف عليها نشرات الأخبار كل يوم.

الخراب المفزع صار أمراً عادياً